زهد الهنود وترفهم

في الهند فئة من البراهمة كهان الهنود يقضون حياتهم عراة الاجسام ويلبسون رداء غليظاً من قشور الشجر ولا يأكلون اللحم بل يقتاتون من الالبان وما صلح من نبات الارض وثمار الاشجار وقد عرفوا بالزهد فلا يأتون الفحش ولا يرتكبون المنكر ويكثرون الصوم ولا يشربون الخمر [illegible] وقد ذكر [illegible] شيئاً من اخبارهم اليونانيون [illegible] كلامه عن [illegible] التي يقاسيها كثير من الناس بثبات عجيب قال ان في الهند حكماء يقضون ازمانهم عراة ويحتملون برد الثلج وظلمة الضباب من غير تأفف ولا ضجر واذا رأوا النار استلموا لها فحرق اجسامهم وهم صامتون

ولقد حكى رواة حملة الاسكندر المكدوني انهُ يوم بلغ تاكسيلا من بلاد الهند رأى جماعة من هؤلاء الحكماء العراة على ما وصفناهم من الآداب والفضائل فاعجب بهم كثيراً ومحبهُ منهم رجل يقال لهُ كالانيس احبهُ الاسكندر وبالغ في اكرامهِ وكان الرجل شجاعاً فاضلاً وشيخاً نزيهاً . بلغ السبعين من سنيهِ الا ان الشيخوخة وما تجلب من التعب وسومت لهُ التخلص من عناء الكبر فعزم على حرق جسمهِ والاستراحة من مضض الحياة وعين يوم الافتخار ولما جاء اليوم الموعود اجتمع الجند والقواد وجمع غفير من الناس وفي طليعتهم الاسكندر في سهل فسيح قريب من بازاركاد حيث اتى ذلك الشيخ واقترب من موضع النار بمشي رابط غير هياب ولا وجل والقى نفسهُ في وسط اللهيب واخذت النار تلتهم لحمهُ وهو صامت لا يئن ولا يشكو . وايَّد نلوطرخس هذه الحادثة ثم ذكر حادثة اخرى من نوعها وهو ان هندياً من هؤلاء الحكماء لحق بالاسكندر حتى اتينا وعمل هناك ما عملهُ كالانيس في الهند وان الموضع الذي احترق فيهِ لقب منذ يومئذٍ بالقبر الهندي

ولقد كان الناس يزعمون من قبل ان ما دوَّنهُ رواة حملة الاسكندر عن هؤلاء الحكماء وما يعملون لا يخلو من الغلو ولا يخرج عن حد الاقاصيص الموضوعة لما في تلك الحوادث من الغرابة والشذوذ عن المعروف المشاهد من عوائد الامم واعمالهم حتى دخل الافرنج بلاد الهند وانتهجها الانكليز فأمها طلاب العلم واهل التجارة ودعاة الدين من الاوربيين واخذوا في دراسة اخلاق اهلها وعوائدهم فرأوا ان ما كتبهُ المؤرخون الاقدمون لا غبار عليهِ وان الهنود ما يرحوا على ما كانوا عليهِ من العوائد والاخلاق وان التمدن الاوربي لم يقوَ حتى اليوم على استئصال تلك العادة الذميمة

وخبر هؤلاء الحكماء معروف عند اليونان من قبل حملة الاسكندر قبل ان ذلك من عهد فيثاغورس يوم جاب الاقطار الشرقية وبلغ الهند واخذ عن حكمائها العلم والفلسفة على قول ولم يكن خبر هؤلاء الحكماء معروفاً لدى علماء اليونان والرومان فقط فقد اتصل بأمم بعدهم العرب فدونوه في مؤلفاتهم وحسبك ما كتبه الشهرستاني في كتاب الملل والنحل قال ومنهم (اي من حكماء الهند) من اذا رأى عمره قد تدانى الى نفسه في النار تذكية لنفسه وتطهيراً لبدنه وتخليصاً لروحه اه . وقال ابو الفداء ان الهنود يحرقون انفسهم واذا اراد الرجل منهم ذلك اتى الى باب الملك واستأذنه في احراق نفسه فاذا اذن له لبس ذلك الرجل انواع الحرير المنقوش وجعل على رأسه اكليلاً من الريحان وضربت الطبول والصنوج بين يديه وقد اجتمع له النيران و يدور كذلك في الاسواق وحوله اهله واقاربه حتى اذا دنا من النار أخذ خنجراً يبدو وشق بطنه جوفه ثم يهوي بنفسه في النار

ومن الغريب ان الشعب الهندي على ما في طباعه من حب السكينة والزهد والاحجام عن ارافة الدماء حتى دم الحيوان يقدم حكماؤه على حرق اجسامهم تخلصاً من الضعف وهرم الكبر او تخليداً للذكر الطيب والصيت البعيد والاغرب من ذلك ان النساء على ضعفهن الطبيعي يعفن الحياة بعد موت رجالهن عن طيبة نفس فيلقين باجسامهن الى النار ليلحقن ازواجهن الى النعيم اقتداء باحدى نساء يرها التي احرقت نفسها يوم وفاة زوجها لتلحق به الى السماء وتشاركه في نعيم الخلود . وقد حكي عن امرأة هندية بارعة الجمال تبلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً انها لما مات زوجها عزمت على حرق جسمها على ضريحه وكان يومئذ في مدراس مدام روسل مع زوجها الاميرال الانكليزي واصطلاه الرامي في مياه تلك المدينة فتقدمت مدام روسل من تلك المسكينة وسألتها ان تعدل عما عولت عليه رحمة بأولادها الصغار ان يضنيهم اليتم فيذوقوا مرارة الحياة وهم اطفال ضعاف لا ملاذ لهم ولا معين فما اشفقت الهندية على اولادها ولا حرك كلام تلك السيدة فيها حنان الوالدة ولا اخفض من غلوائها شيئاً بل لبثت على عزمها واجابت مدام روسل ان الله خلق اطفالي وهو المسؤول في حفظهم ثم جعلت تمد لنفسها المعدات بان احضرت الحطب واضرمت النار فيه حتى اذا تأجج رمي وطيسه القت نفسها وسط اللهيب بكل ثؤدة وسكينة ولله في خلقه آيات

هذا من حيث زهد الهنود اما من حيث ترفهم فتاريخ الشرق مملوء باخبار بذخ امرائه وعظمائه وترفهم وانهم متى ايسروا جادوا ومتى اخفى عليهم الدهر وقلب لهم ظهر المجن استلأموا للفاقة والعسر . فكأن البذخ من خصائصهم والترف مما تصبو اليه طباعهم ألا ترى ان الامم

الشرقية الناهضة لهذا العهد بدأت تأخذ عن الافرنج اعلى اسباب ترفهم واغلاها قبل ان يستحكم في موادها لتقليدهم في مناشيء الارتقاء

وهذه الهند على رحبها وكثرة ساكنيها كانت منذ عهد قريب في حال من الخمول وتضعضع الشؤون لا يخفى على احد بحيث ضعفت قواها عن حفظ وجودها السياسي فسارت عن عظمتها طعمة للانكليز الذين غلبوها بفئة قليلة من رجالهم حكموا السياسة في مقاليدها فملكوها وشرعوا منذ يوشك يحسنون شؤونها بالتؤدة والحزم لا يريدون لرقيها افراطاً يزيدها تضعضعاً ووهناً ولا تفريطاً يكثر فيها الخلل ويحط بها الى الحضيض فنالت بالحكمة لها اصلاحاً وانالت الاهلين تقدماً وساد في ربوعها الامن والسلام وتدفقت عليها الثروة واليسار

وهبَّ من ملايين الهنود الوفٌ يقلدون المصلحين ويتثلون بالسابقين في الرقيّ ومعدات الاّ انهم اندفعوا الى اخذ الكثير من مظاهر الترف فتراهم وقد تسهلت وسائل النقل عندهم بتأمين السابلة ومد الخطوط الحديديّة وبناء الجسور المتينة واصلاح الطرق لسير المركبات اصلاحاً حسناً جداً يتابعون مترفي الافرنج في اختيار احدث المركوب اختراعاً واكثره رفقةً بدأوا بالمركبات الخواصل والخاصة واتصلوا بالدراجات وامثالها ولكنهم بلغوا اليوم الى الاوتوموبيل يسيرونهُ في الطرق الوعرة الممتدة مئات من الاميال ويثرثرون على ادارته والمسابقة به حتى يرع منهم كثيرون

ومما يذكر من شأن طرق المركبات في الهند انها انشئت في بادىء امرها لغرضين مهمين اولهما تسهيل التجارة وثانيهما الاسراع في نقل العسكر من موقع الى اخر وام الطرق الكبرى هنالك ما امتدَّ من مدينة بشاور في شمالي الهند على مخوم افغانستان حتى مدينة كلكتا مسافة طولها ثلثمئة ميل . وثمَّ طرق اخرى طويلة المدى كلها كانت تعتمد قبل انشاء السكك الحديديّة الاّ ان الحكومة الهنديّة والحكومات المحلية لم تكن لتهمل هذه الطرق بعد ان رأت سكة الحديد وافيةً بحاجيات النقل بل ما برحت تتعهدها بالمرمة والاصلاح

فكان هذا الاعتناء باعثاً على استخدام الطرق المعبدة لسير المركبات على اختلاف انواعها تنزيهاً لخواطر الناس ان لم يكن جرَّاً لمنافعهم . واندفع القوم من اعاظم امرائهم وحكامهم واغنيائهم لركوب المركبات الفاخرة ذات الاثمان الباهظة حتى كاد يصبح استعمالها عند عظماء الهند من حاجياتهم مع انهُ ما برح عند مخترعيها الافرنج من الكماليات التي يستغنى عنها . وقد بلغ من ولع امراء الهنود بذلك ان احدهم بهراجا كوالیور نشر ذيلاً مطبوعاً وخريطة مضبوطة كل الضبط للطرق الصالحة للاوتوموبيل في بلاده بحيث يستدل راكبها على خطة

سيرهم وما في طريقهم من المنازل وغيرها

والناس مولعون دائماً بتقليد امرائهم وعظمائهم ومن يظنون فيهم سمو الفكر وبعد المكانة ولذلك ما عتم ان سرت عدوى هذا الترف الى الطبقات الاخرى من الناس فطلق بها اولاً السراة والاغنياء من التجار واهل الصناعات لاسيما من سكان بومباي ثم لحق بهم كثيرون من موظفي الحكومة الا ان هؤلاء ليسوا على سعة من الرزق تمكنهم من الانفاق كالاغنياء فكانت مركباتهم من طبقة ادنى من الطبقة الاولى وما عتم ان انتشرت العدوى فصارت عامة حتى لم يبق الاوتوموبيل حاجة لا يتناولها الا المترفون لانهُ هم وشمل ولعل الذين لم يسعدوا بالحصول على واحدة منهُ صاروا يحسبون ذلك نقصاً في تيلهم حاجياتهم . فخرجت تلك الطرفة بين سواد الميسورين اينما من بين الكماليات وصارت بين الحاجيات . ومما يدل على سرعة انتشار داء احرازهِ ان الذين استعملوهُ اولاً كانوا يأنون بسواقهِ من الانكليز الخبيرين فيها فيكلفهم ذلك نفقة زائدة وعناء قد يقعدان ببعض رغابها عن السعي في تيلها ولكن ما اسرع ما تعلم سواق الهنود هذه المهنة حتى برع فيها بعضهم فصار من السهل استخدام المتدين برواتب قليلة ليتفي حاجة النفس المترفة وظل للامراء والسراة شيء من الميزة يبقائهم على استخدام السواق الانكليز لانهم يتفقون عن سعة . ومنهم من يكثر من مشترى الاوتوموبيلات الفاخرة حتى ان مهراجا كايكوار يعد في حوزتهِ منها ستة عشر اوتوموبيلاً بعضها من افخر ما انتجت مصانع اوربا واميركا

ومن جملة ما يقلد الهنود بهِ الافرنج احياء المناسبات . فقد جرى عندهم السباق مراراً بالمركبات ومنها الاوتوموبيل ايضاً . فدلت على احرازهم المهارة في سوقهِ وان عندهم منهُ من اطايب المصنوع في اوربا

وهذا الحديث عن استعمال الاوتوموبيل ليس فيهِ شيء يذكر سوى الاشارة الى مبلغ الترف الذي يكن في طباع الشرقي ضمناً حتى يظهر على اشدهِ عند اشتداد ساعدهِ . وهو الدليل القاطع على أن الكبراء يجبون التنافس بما لديهم من مالٍ ومتاعٍ غير مهتمين بسواد الامة وبما يجلبون عليها من الوبال بتظاهرهم والامة تندفع الى تقليدهم تقليداً اعمى قد يوردها موارد العطب

فيا لله متى يستفيق الشرقي من سباتهِ ويفقهُ معنى وجودهِ في امتهِ ونسبتهِ الى المجتمع وما عليهِ من الواجبات الاولية نحو الكل الذي هو جزء منهُ لانهُ متى عرف ذلك اهتدى الى طرق الخير والسعادة